المحاضرة 08

الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر المستعمرة

لقد عملت الإمبراطوريات الأوربية منذ عصر الكشوفات الجغرافية خلال القرن السادس عشر إلى التوسع على حساب عوالم أخرى، وازدادت موجة التوسع هذه ضراوة وتطورت إلى ما اصطلح على تسميته بالإمبريالية الاستعمارية الأوربية خصوصا خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين، فعملت هذه الأخيرة على تطويع المعرفة لتحقيق السيطرة المزدوجة على الطبيعة وعلى البشر الآخرين من غير الأوربيين.

وقد كانت العلوم الإنسانية والاجتماعية معنية بهذا التطويع والتوظيف، فالأوربيين منذ أن حققوا انتصاراتهم الأولى في مناطق مختلفة من العالم الشرقي، أرسلوا ضمن رحلاتهم التجارية والحربية، باحثين واثنوغرافيين ورجال دين مسيحيين لمعرفة حضارة وثقافة تلك الشعوب، وتركيباتها العرقية، ومدى انتشارها الجغرافي والمجالي، وقد تم الاعتماد في ذلك في مراحل أولى على المستشرقين ثم لاحقا على علماء الأنتروبولوجيا.

إن نشأة الأنثروبولوجيا الوضعية لم تكن بنتائج أبحاثها في صالح الإنسان غير الأوربي أو الآخر كما أصبح يسمى، لقد وقع نوع من التقارب في البدايات ليتطور لاحقا إلى تساند وتحالف بين نتائج البحوث الأنثروبولوجية والآلة الاستعمارية الإمبريالية، بل إلى درجة هيمنة الإرادات الاستعمارية برؤها السياسية التوسعية و بأجهزتها الآلية وجيوشها العسكرية على الأنثروبولوجيا كعلم، فأفرغ هذا العلم من محتواه وأبعاده وغيرت أهدافه، فأصبح عبارة عن أيديولوجيا وليس علما.

ومن الأمثلة البارزة لتوظيف واستخدام الأنتروبولوجيين ونتائج أبحاثهم خدمة للدول الأوربية الاستعمارية ، نجد الارتباط الوثيق بين الأنثروبوولوجيا الكولونيالية والإدارة الاستعمارية في الجزائر ،لقد تعرض المجتمع الجزائري في تاريخه الحديث، وتحديدا في بدايات القرن التاسع عشر لأبشع أنواع الاستعمار والاستيطان من قبل الجمهورية الفرنسية آنذاك، فتعرضت البناءات الاجتماعية للتفكيك والتفتيت، إضافة إلى سعي الاستعمار لطمس هوية وشخصية الفرد الجزائري، وكان رد الفعل من قبل الجزائريين تجاه هذا الاستيطان هو انتهاج خيار المقاومة، على مدار 132 سنة، وبلا شك أن هذا الوضع الاستعماري الاستيطاني كان له تأثير كبير على إفراز العنف في مجريات الحياة الاجتماعية في المجتمع الجزائري، مما جعل بعض الباحثين يقرون أن ظاهرة العنف التي يشهدها المجتمع الجزائري هي موروث كولونيالي.

ففي مجال مكونات الشخصية الجزائرية أجريت العديد من "الأبحاث النفسية والأنتروبولوجية" و كان هدفها تقديم تبريرات تصب في خدمة السياسة الاستعمارية آنذاك، وتدعيم الكثير من الأحكام التي أطلقتها السلطات الكولونيالية الفرنسية، وترسيخ العديد من التسميات، والتصنيفات حول الإنسان المغاربي عموما والجزائري خصوصا وفيما يلي سنقوم بسرد بعض الأمثلة لهذه الدراسات والأبحاث .

من أبرز ما ركزت عليه هذه الدراسات أو الادعاءات هو محاولة تتبع تاريخ الأمراض العقلية في الجزائر وكان من أبرز المنظرين لها المسمى" Porot 1876-1965"ومن أبرز ما توصل إليه من ادعاءات هو أن المغاربي مشوه من الناحية الخلقية، فهو لا يتوفر على الفص ما قبل الجبهي، ونظرا لهذا الخلل الخلقي فانه ليست له القدرة على القيام بأفعال أخلاقية، فهو قليل الذكاء ناقص الشخصية.كماادعى بيير مورلان أن الجزائريين غير قابلين للتربية، خدمة منه للمشروع الإجرامي الفرنسي، وادعاؤه هذا مردود عليه، وكأنه لم يقرأ لأبرز فلاسفة بني جنسه " الفيلسوف ديكارت" الذي أقر حقيقة علمية مفادها أن العقل قسمة الله العادلة بين البشر.

كما كان ينظر إلى ذهنيات الأهالي على أنها تتناقض مع السير نحو التغير، فالتعليم يواجه عقبات كأداء، وفي هذا الشأن يقول المفتش" غوستاف بينوا، Gustave Benoit" من خلال كتابه الذي أنجزه حول مدارس الأهالي:" نحن جميعا متفقون حول الطريقة الواجب اعتمادها، وستكون الطريقة المعتمدة في مدارسنا التحضيرية وذلك لمدة طويلة جدا. إن أهالينا أطفال، أطفال كبار، يجب أن نوجه الحديث لأعينهم وإبهار خيالهم كيما نصل إلى ذكائهم وإيقاظهم وحملهم على التفكير والفهم والحفظ، ... يجب أن ندرس الجغرافية أولا في الهواء الطلق، ففي الهواء الطلق يستطيع هؤلاء الأطفال المتوحشون أن يتعلموا كيف يتجهون."[1]

كان المجتمع الجزائري من أكثر المجتمعات المغاربية والعربية مجالا للدراسات الاثنولوجية، وكان نموذج التحالف بين الأنتروبولوجيا والاستعمار جليا وبكل المحددات، فها هو ذا المجتمع قد جرد تدريجيا من هويته الجماعية، فقد أصبح واجهة للمتجولين القادمين من عاصمة " الدولة المستعمرة، " metro pole " ويشهد على ذلك الروايات وكذا المعارض الاستعمارية، فالمستعمر هو الوحيد الذي يحدد صيرورة العالم وفق معاييره الخاصة وسلم قيمه وقوانينه ومقاييسه تاركا عطر الغرائبية للمستعمر، كما أبرز أن لرجل الغرب الأبيض مهمة في غاية الصعوبة تتمثل في تصيير الأهلي رجلا مثله، وكانت النظرات والتصريحات متضاربة بشأن المجتمع المستعمر، فأحيانا ينظر إليه على أنه هالك في ما ينطوي عليه من أصالة ويرثى لهذه الآفة الضرورية، كما تتهم كل الأشكال المحافظ عليها وذلك أنها سبب جميع أنواع التخلف والعقبة أمام التطور الصعب2

و كان انجلز يصف سكان الجزائر بالوحشية في مرحلة ما قبل وقوفه على جرائم فرنسا في الجزائر ويعدل من رأيه لاحقا، فيرى في استعمار فرنسا للجزائر هو من الحظ السعيد ومن الفأل الحسن لنشر التقدم والحضارة، وخصوصا وأن البدو كانوا لصوصا، فالبرجوازي المتنور صاحب الصناعة والحضارة أفضل من الإقطاعي أو السارق الذي ينتمي إلى مجتمع متوحش. حسب أقوالهم

1- Gustave Benoit; De l'instruction et de l'éducation des indigènes dans la province de Constantine; Hachette ;Paris .

[2] – فيليب لوكا وآخر: جزائر الأنثروبولوجيين، نقد السوسيولوجياالكولونيالية، ترجمة: محمد يحياتن وآخرون، 2002.

لقد مارس الاستعمار الفرنسي سياسة إبادة للنسيج السياسي والاقتصادي التقليدي" على خلاف المغرب وتونس" وهذا يطرح سؤالا هاما مفاده "هل الجزائريين هم بلا تمايز اجتماعي، إن الاستيطان ليس شيئا آخر غير التوسع القصري وفرض العلاقات الرأسمالية في الإنتاج على المجتمعات التي تسيطر عليها البورجوازية الأجنبية، وشروط الاستغلال الرأسمالي أدت بالتحديد الى وجود نمطين من أشكال التنظيم في وقت واحد بالبلدان المعنية، الأول هو الأشكال الاقتصادية العتيقة التي تسمح باستغلال حاد للفلاحين الفقراء، والثاني هو الأشكال المتقدمة للتنظيم الصناعي التي تضمن على سبيل المثال سير المؤسسات المنجمية أو مؤسسات النقل الحديث وهذه حسب المؤلف هي حالة الجزائر المستعمرة.

وفيما يخص قانون الأهالي فقد كتب .Ernest Mercier عام "1901" كتابا بعنوان: « La question indigène en Algérie au commencement de XXe siècle, l'Harmattan, paris» " حيث من بين ما ورد فيه :"أهالينا هم في حاجة إلى الحكم، هم أطفال كبار غير قادرين على التصرّف بمفردهم، يجب أخذهم بحزم وصلابة، لا يجب أن نتحمّل منهم أيّ حماقة، لا بدّ أيضا من قمع كلّ ما يُفقِد العزيمة و يُحبِط الهمم، و في نفس الوقت يجب حمايتهم و توجيههم أبويا و مساعدتهم، و خاصّة استعادة تأثيرنا عليهم كالمثابرة على إبراز تفوّقنا الأخلاقي عليهم."

ومن أمثلة الدراسات الأنثروبولوجية الفرنسية التي كانت تهدف إلى ترسيخ الفرقة بين مكونات الشعب الجزائري، نجد تلك الأبحاث التي تركزت وتخصصت في منطقة من مناطق الوطن الجزائري ومن أمثلة ذلك الدراسات التي ركزت على دراسة منطقة القبائل بالجزائر، وسنأخذ مثالا على ذلك من خلال إطلالة سريعة على ما كتبه "أودولف هانوتو" فمن أبرز ما كتبه هذا الأخير: "قواعد اللسان الأمازيغي" و " الشعر الشعبي لقبائل جرجرة" وكتاب "منطقة القبائل" وهذا المنتوج الأخير كان بمثابة موسوعة ثقافية واجتماعية لمنطقة القبائل، وأعماله تؤدي دور توثيق الثقافة الأمازيغية الشفهية وحفظها من الضياع والاندثار، غير أن المقصد الحقيقي من هذه الأعمال محاولة بث التفرقة بين أبناء الوطن الواحد، وتفكيك اللحمة الوطنية، ومحاولة رسم تمايز واختلاف جذري داخل النسق الثقافي الجزائري وما يحمله من تنوع لا يختفي معه التجانس والتقارب. بل نظر إلى ثقافة المجتمع الجزائري على أنها تتسم بالجمود ولا حل للجزائري إن أراد التحضر إلا الاندماج في ثقافة فرنسا و أوربا.

إضافة إلى تقسيمه " هانوتو" إلى سكان الوطن الواحد إلى عرب وبربر، وحسبه أن البربر إسلامهم سطحي، فالإسلام غير متجذر في شخصية الفرد البربري في منطقة زواوة وبالتالي فهو يضمر الدين المسيحي المغطى بقشرة رقيقية من الدين الإسلامي كما ادعى.

وكذلك من بين الاثنوغرافيين الذين اشتغلوا بالحقل الجزائري أنتروبولوجيا نجد شارل فيرو Charle Feraud ، حيث كانت له العديد من الدراسات، ويمكننا في هذا السياق ذكر واحدة من دراساته التي لفتت انتباه السلطات الاستعمارية الفرنسية واستغلت نتائجها، هذه الدراسة كانت بمنطقة القبائل الشرقية من الجزائر، والتركيز على منطقة القبائل بالجزائر كانت له أهداف كولونيالية بحتة.